

مفهوم البناء السردى :

يَجْدُرُ بِالْبَحْثِ قَبْلَ الْوُلُوجِ إِلَى الْمَفْهُومِ، أَنْ يَسْتَعْرِضَ تَعْرِيفَ الْبُنْيَةِ وَ السَّرْدِ
 الْبُنْيَةِ لُغَةً: جَاءَ فِي (لِسَانِ الْعَرَبِ) أَنَّ "الْبُنْيَ": نَقِيضُ الْهَدْمِ، بَنَى الْبَنَاءَ بَنَاءً، وَبَنَاءً وَبَنَى
 وَبُنْيَانًا، وَبُنْيَةً وَبُنْيَةً، وَابْتَنَاهُ وَبَنَاهُ، وَقَوْلُ الْأَعُورِ الشَّنْيَ فِي صِفَةِ بَعِيرٍ:

لَمَّا رَأَيْتُ مَحْمَلِيهِ أَنَا
 مُخَدَّرِينَ كَدْتُ أَنْ أُجَنَّا
 قَرَبْتُ مِثْلَ الْعَلَمِ الْمُبْنَى

شَبَّهَ الْبَعِيرَ بِالْعَلَمِ لِعِظَمِهِ وَضَخَمِهِ، وَعَنَى بِالْعَلَمِ الْقَصَرَ، يَعْنِي أَنَّهُ شَبَّهَهُ بِالْقَصْرِ الْمُبْنَى
 الْمُسَيَّدِ. وَالْبِنَاءُ: الْمُبْنَى، وَالْجَمْعُ أَبْنِيَةٌ، وَأَبْنِيَاتُ جَمْعِ الْجَمْعِ. وَالْبُنْيَةُ، وَالْبُنْيَةُ: مَا بَنَيْتَهُ وَهُوَ
 الْبِنَانِي، وَالْبُنْيُ. كَأَنَّ الْبُنْيَةَ الْهَيْئَةُ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا، وَفُلَانٌ صَحِيحُ الْبُنْيَةِ أَيُّ الْفِطْرَةِ (...)
 وَالْبَوَانِي: قَوَائِمُ النَّاقَةِ. (1).

البنية اصطلاحاً: المعنى الاصطلاحي لمفردة البنية يدلّ "في تضاعيفه على دلالة معمارية
 وقد تكون بنية الشيء هي تكوينه. وتعني الكيفية التي شيد على نحوها هذا البناء، ومن هنا
 فإنه يمكن التحدّث عن بنية المجتمع، أو بنية الشخصية أو بنية اللغة. (2).

يشير التعريف اللغوي في ثناياه إلى المراحل في عملية البناء، وهذه المرحلية
 تستدعي كيفية إيجاد تنظيم، وتجانس بين مكونات، أو طبقات عديدة كلّها تنتظم من خلال
 الشكل النهائي للبناء، الذي يتّسم بالثبات، ذكر هذا "صلاح فضل" فقال: "تصوره اللغويون
 على أنّه الهيكل الثابت للشيء، فتحدث النحاة عن البناء مقابل الإعراب، كما تصوره على
 أنّه التركيب والصياغة، ومن هنا جاءت تسميتهم المبني للمعلوم، والمبني للمجهول. (3).

السرد لغة: "وهو تقدّم شيء إلى شيء تأتي به متّسقاً بعضه في أثر بعض متتابعاً ويقال:
 سرّد الحديث ونحوه، يسرّده سرّداً: إذا تابعه، وفلان يسرّد الحديث سرّداً: إذا كان

(1) ابن منظور: لسان العرب، (تحقيق: عبد الله علي الكبير. محمد أحمد حسب الله. هاشم محمد الشاذلي)، مج 5
 دار المعارف، (د. ط)، القاهرة، مصر، [د. ت.]. ص ص 365. 367.

(2) زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، دار مصر للطباعة، (الجمهورية)، مصر، [د. ت.]. ص 29.

(3) صلاح فضل: النظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت، لبنان، 1985 م. ص 175.

ويقال: سَرَدَ الحديث ونحوه، يَسْرُدُهُ سَرْدًا: إذا تابعه، وفلانٌ يَسْرُدُ الحديثَ سَرْدًا: إذا كان جيد السياق له، وسَرَدَ القرآن: تابع قراءته في حدر منه، والمَسْرُدُ اللسان، وسرد خفَّ البعير سَرْدًا خصفه بالقد. وفي القرآن الكريم وردت لفظة "سرد" في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أَصْحَابِ الْقُرْآنِ لَمَجِدُونَ لِلَّهِ الْمُلْكَ الْغَلِيظَ﴾ (سورة القصص: 28).

وقيل: ألا يجعل المسمار غليظاً، والثقب دقيقاً، فيفصم الحلق ولا يجعل المسمار دقيقاً والثقب واسعاً، فيتقلقل أو ينخلع، أو ينقصف، اجعله على القصد وقدر الحاجة. (1).

السرد اصطلاحاً: قدّم "جيرار جنيت" GERARD GENETTE "تعريفاً اصطلاحياً للسرد: "هو قصّة واحدة أو أكثر، خيالية أو حقيقية". (2). وهذا يعني أنّ "السرد لا يوجد إلاّ بواسطة الحكاية، كما أنّه عرض لتسلسل الأحداث، أو الأفعال في النص". (3).

ورد في النقد العربي القديم إشارات لمفهوم السرد، منها ما ورد عند "ابن رشيق" (390م/1063م) في كتابه "العمدة"، وهذا في قوله: "ومن الناس من يستحسن الشعر مبنياً بعضه على بعض وأنا أستحسن أن يكون كلّ بيت قائماً بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله، ولا إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير، إلا في مواضع معروفة، مثل الحكايات وما شاكلها فإنّ بناء اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السرد". (4). ويلاحظ أنّ "ابن رشيق" جعل السرد قائماً على احتياج البيت لما قبله وما بعد و بناء اللفظ على اللفظ و وجوده في الحكايات، وما شاكلها.

السرد عند "ابن طباطبا" (ت: 322هـ/934م) هو: "على الشاعر إذا اضطر إلى اقتصاص خبر في شعر دبّره تدبيراً، يسلس له معه القول، ويطرد فيه المعنى، فيبني شعره على وزن يحتمل أن يُحشى بما يحتاج إلى اقتصاصه بزيادة من الكلام يخلط به، أو نقص يُحذف منه، وتكون الزيادة، والنقصان يسيّرَيْن، غير مخدجين لما يستعان فيه بهما وتكون الألفاظ المزيدة غير خارجة من جنس ما يقتضيه، بل تكون مؤيدة له، وزائدة في رونقه وحسنه، ثم ضرب مثلاً على كلامه بقول الأعشى فيما اقتصه من خبر السمّوأل. (5).

(*) سبأ ، 11.

(1) ابن منظور: المرجع السابق، مج3، ص211 .

(2) محمد عنان: معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط3، مصر، 2003 م . ص59.

(3) جيرار جنيت : خطاب الحكاية : (بحث في المنهج)، (ترجمة: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلمي)، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، ط2، بولاق، مصر، 1997 م. ص40.

(4) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه، (تحقيق: محمد محيي الدين)، دار الجيل، ط1، لبنان، 1972م. ص261.

(5) ابن طباطبا : عيار الشعر، (تحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام)، منشأة المعارف، ط1، الإسكندرية، مصر 1984 م . ص35.

كُنْ كَالسَّمَوَالِ إِذْ طَافَ الْهُمَامُ بِهِ فِي جَحْفَلٍ كَزُهُاءِ اللَّيْلِ جَرَّارٍ (1)
 بِالْأَبْلَقِ الْفَرْدِ مِنْ تَيْمَاءٍ مَنَزِلُهُ حِصْنُ حَصِينٍ وَجَارٌ غَيْرُ غَدَّارٍ
 إِذْ سَامَهُ خُطَّتِي خَسَفٍ فَقَالَ لَهُ اِعْرِضْ عَلَيَّ كَذَا أَسْمَعُهُمَا حَارٍ
 فَقَالَ: غَدْرٌ وَتُكُلُّ أَنْتَ بَيْنَهُمَا فَأَخْتَرُ وَمَا فِيهِمَا حَظٌّ لِمُخْتَارٍ

وبعد أن يذكر "ابن طباطبا" القصيدة كلها يعلّق عليها قائلاً: "فانظر إلى استواء هذا الكلام وسهولة مخرجه، وتّمام معانيه، وصدق الحكاية فيه، ووقوع كلّ كلمة موقعها الذي أريدت له، من غير حشد مجتلب، ولا خلل شائن". (2). ويعدّ "صلاح فضل" هذه الإشارة أوضح كلام عن السرد الشعري، في النقد والبلاغة العربية في الماضي. (3).

وأما في اللغات الأجنبية فقد ذكر "زكريا إبراهيم": "إنّ كلمة "بنية" (structure) مشتقة من الفعل اللاتيني (strucre) بمعنى يبني، أو يشيّد، أو حين تكون للشيء بنية (...) فإنّ معنى هذا وقبل كلّ شيء -أنّه ليس بشيء غير منتظم أو عديم الشكل (amorphe)، بل هو موضوع منتظم له صورته الخاصة، ووحدته الذاتية (...). وهنا يظهر التقارب بين معنى البنية، ومعنى الشكل (form)، وما دامت كلمة بنية في أصلها تحمل معنى المجموع (...) المؤلّف من ظواهر متماسكة، يتوقّف كلّ منها على ما عداه، وتحدّد من خلال علاقته بما عداه". (4).

مفهوم البناء السردى:

وُجِدَ السّرد الأدبي منذ القِدَم؛ وهذا لوجود جماعات بشرية لها سردها الخاص بها في جميع ميادينها. "فهو ذو أهميّة بالغة في نقل، وتسجيل الأحداث، والمواقف. ولكي تتبلور الصورة عن هيكله لمنظومة حكاية ما، لابدّ من أن يتمّ ذلك من خلال البحث في مكونات هذا الهيكل البنائي، بدءاً من متونه وصولاً إلى بناه" (5). فالبناء السردى قائم على بنية خطاب سردي مُنتج، ومقصود. يتوافر على فضاء تتحرّك فيه شخصيات، تنتج أحداثاً في زمن ما، وفّق رؤية، وحوار. من هنا "لئن كانت بنية الخطاب السردى نسيجاً

(1) الأعشى: ديوان الأعشى، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، ط1، بيروت، لبنان، 1992م. ص ص 107. 108.

(2) ابن طباطبا: المرجع السابق، ص36.

(3) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1998م. 164، ص281.

(4) زكريا إبراهيم، المرجع السابق، ص 29.

(5) قيس عمر: الأسس الفلسفية للبنية الأدبية، الجمهورية نت، شبكة الانترنت، بتاريخ 2009/07/19م.

<http://www.algomhoriah.net/newsweekarticle.php?sid=120688>

قوامه تفاعل تلك المكونات، أمكن التأكيد بأن السردية هي العلم الذي يُعنى بمظاهر الخطاب السردى أسلوباً، وبناءً، ودلالةً".(1).

تبرز أهمّ الانجازات عبر هذا النطاق في ظهور علوم عديدة، تُعنى بالسرد خاصّة لها مناهجها، وقضاياها، تبلورت هذه العلوم مجتمعة في الحقبة البنيوية، التي وسمت هذه المرحلة (منذ أواسط الستينيات، وأوائل السبعينيات). فالعلوم السردية شأنها في ذلك شأن أيّ اختصاص علمي، قامت أولاً على أساس تحديد موضوعها بدقة. فلفظ البنية يحمل في ثناياه تحقيق حلم الإنسان الذي طالما حاول وضع يده على الموضوع من أجل إدراكه وكأنّ البنية هي تلك الوحدة الجديدة التي تضمن للعقل فهم الواقع والتأكد من السيطرة عليه. والتركيز على البنية انطلاقاً من الوظائف التي تؤديها في العمل الإبداعي.

قد تكون بنية الشيء هي تكوينه، ولكن الكلمة قد تعني أيضاً الكيفية التي شُيّد على نحوها هذا البناء أو ذاك، فالبحث في البنية هو بحث في انتظام عناصرها في المجال الإبداعي، انتظاماً دقيقاً، تتآزر فيه تلك العناصر، وتتكامل؛ لتؤسّس نظاماً تتجانس مكوناته تجانساً تاماً. اتّسع هذا المفهوم أيّ الكلّ المتماسك الذي يتحدّد من خلال شكله ووظيفته، ومن خلال علاقته مع بقية الأجزاء أيّ أنّه "الكلّ الذي يشمل وضع الأجزاء في مبنى ما من وجهة النظر الفنية المعمارية، وبما يؤدي إليه من جمال تشكيلي".(2). يتّضح أنّ البنية هي الصورة المتشكّلة، والمتصورة في النص، والمستقرّة من ناحية التشكّل، أيّ أنّها بنية الشيء، لها صورة هيكلية ثابتة، وهي تتحدّد من خلال بقية العناصر، أو البنى التي يشدّ بعضها بعضاً داخل البناء السردى

فالبناء السردى نسيجٌ محكمٌ من العناصر المكوّنة له، مثل الحدث، والشخصيات والزمن، والمكان. وفيه تتابع الأحداث تتابعاً سببياً. وهكذا يبدو لدى " زكريا إبراهيم " أنّ "البنية قوانينها الخاصة التي لا تجعل منها مجرد مجموعات ناتجة عن تراكمات عرضية، بل هي أنسقة مترابطة تنظم ذاتها، سائرة في ذلك على نهج مرسوم وفقاً

(1) عبد الله إبراهيم: السردية العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 2003 م. ص 9.

(2) صلاح فضل: النظرية البنائية في النقد الأدبي، ص 175 .

لعمليات منتظمة خاضعة لقواعد معينة، هي قوانين الكلّ الخاص بهذه البنية." (1) .
فالبحث في كيفية انبناء مكونات البناء السردى هو جوهر العملية، والباحث في هذا هو
"الشخص الذي يجرى مجموعة من العناصر المتكاملة، بهدف إعادة ترتيبها بشكل منطقي
يضمن فهم نظامها، ويستخلص العلاقات المتبادلة بينها، أو الأنساق التي تحكمها." (2).
يتعدى مفهوم ربط العلاقات بين عناصر البناء السردى إلى الدور الفعال لهذا النظام
"الوظائف التي تنجزها العناصر لتشكيل البنية لا تقف عند مستوى تشكيل البنية بل تعمل
خلال تشكيلها للبنية على احتواء المعنى، والدلالة عليه، ولهذا يمكن القول : إنّ وظيفة
العنصر مركبة : بنائياً، ودلالياً، وهذه الوظيفة تُدرك من خلال تلمّس كيفية انبناء البنية،
وإدراك العناصر التي تسهم في تشكيل المعنى كبنية نصية دالة." (3).

لذا عُدّ البناء السردى في الرواية دائماً مركّباً كما يراه "مارتن والاس" Martin Wallace
"غير مستقرّ، ومنطقة متغيرة من أنواع مختلطة." (4). تتراسل فيما بينها؛ لتنتج تخيلاً يتّسم
بتعدّد معانيه، وثرأ مقاصده، ويثير لدى متلقيه استجابة من نوع ما. كما يدفعه إلى إعادة
كتابته ثانية وفق سويته المعرفية، ومخزونه الثقافي، ومقدرته على اكتشاف المضمّن فيه.
ولا يتحقّق ذلك كلّه بمعزل عن معمار سردي، يتجاوز محكي النص بوصفه متناً إلى هذا
المحكي بوصفه بناءً، ويجادل بين هذين الطرفين كما لو أنّهما كلّ واحد. لا يمكن إعادة
بناء أحدهما على المستوى الدلالي بمنأى عن إعادة بناء الدلالات، التي يتضمّنهما هذا
الآخر أيضاً.

تعتمد جمالية السرد إلى تجاوز البنية هذا ما يوضحه "أحمد مرشد" بقوله: "تتجاوز
الجمالية تشكّل البنية، كنظام أولي يؤسس أنماط العلاقات الخفية، بين العناصر التي تشكّل
البنية، إلى الدور الفاعل لهذا النظام، فالوظائف التي تنجزها العناصر لتشكّل البنية لا تقف
عند مستوى تشكّل البنية، بل تعمل خلال تشكّلها للبنية على احتواء المعنى والدلالة

(1) زكريا إبراهيم: المرجع السابق، ص 31 .

(2) بلمليح إدريس: البنية الحكائية في رواية المعلم علي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 1985 م. ص13.

(3) مرشد أحمد: البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت

لبنان، 2005 م. ص 20 .

(4) مارتن والاس: نظريات السرد الحديثة، (ترجمة : حياة جاسم محمد)، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية

(د.ط)، بولاق، مصر، 1997 م. ص 48 .

عليه، ولهذا يمكن القول إنّ وظيفة العنصر بنائية، ودلالية، وهذه الوظيفة تدرك من خلال تلمّس كيفية انبناء البنية، وإدراك العناصر التي تسهم في تشكيل المعنى كبنية نصية دالة⁽¹⁾. أيّ معمار روائي يحرض متلقّي النص على البحث في "أدبيّة (La Littérarité) هذا النص بتعبير السرديات. فكلّ محكي سردي ينهض على حاملين أساسيين: "متن" و"مبنى"، أو: "قصة" و"حبكة" أو "قصة" و"خطاب"، أو "حكاية" و"سرد"، وسوى ذلك من أسماء تحيل إلى هذه الثنائيات المعبّرة عن ترجح السرود عامّة، بين هذين الحاملين. يُقصد بالمتن/ القصة /الحكاية كما يعبر عنها "مارتن والاس": "المواد قبل اللفظية في نظامها التاريخي".⁽²⁾، أو الحدث ممثلاً في تطوّره الزمني وعلاقاته السببية، أيّ المادة الحكائية الخام. أمّا المبنى / الحبكة / الخطاب / السرد، فهو عنده أيضاً: "كلّ التغيرات التي يحدثها السارد، في مواد القصة قبل اللفظية".⁽³⁾، أو "جميع المقومات التي يضيفها الكاتب إلى القصة".⁽⁴⁾. والتي تشمل مجمل عناصر المحكي: السرد والشخصيات والمنظور السردى، والزمن والحدث والحوار.

يتكوّن السرد، في مجمل أشكال المحكي بعامة، من عنصرين أساسيين: السرد بمعنى : خطاب الأحداث، والعرض، بمعنى: خطاب الأقوال. فإنّه يعني في معظم الدراسات التي عنيت به كما يذكر "حميد لحميداني": "الكيفية التي تروى بها القصة".⁽⁵⁾ أو مثل ما عبر عنه "عبد الرحيم الكردي" بأنّه "طرق تشكيل الحكاية، وأساليب عرضها".⁽⁶⁾. البناء السردى، أي تأثيث كون مرئي من خلال حدود سردية تشخيصية، ليس مفصلاً عن الحدث، باعتباره البؤرة التي تستوعب المكان، والزمان، وباعتباره أيضاً البؤرة التي تتمّ داخلها صياغة الكيانات، التي تتجسّد بواسطتها مجموع القيم الدلالية في النص "سرد قصة يفترض بناء عالم، فالرواية لا علاقة لها، في بداياتها الأولى بالكلمات. كما يقول "إيكو" ، وذلك هو جوهر الرواية، ومبرر وجوده".⁽⁷⁾. فالممارسة

(1) مرشد أحمد: المرجع السابق، ص 20.

(2) مارتن والاس: المرجع السابق، ص 139 .

(3) المرجع نفسه، ص 141.

(4) المرجع نفسه، ص 140 .

(5) حميد لحميداني: بنية النص السردى (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، بيروت، لبنان، 2000 م. ص 45 .

(6) عبد الرحيم الكردي: السرد في الرواية العربية المعاصرة، دار الثقافة، ط1، القاهرة، مصر 1992م، ص 110.

(7) سعيد بنگراد: الرواية المغربية وقضايا التشخيص السردى . موقع سعيد بنگراد في شبكة الانترنت

<http://www.saidbengrad.com/ar/index.htm>

بتاريخ: 2009/11/23

الروائية حسب "صلاح الدين بوجاه" هي: "انبجاس البناء الروائي ينطلق من الأشياء واللغة، لكنّه يصهرهما مولداً كلاً تأليفاً جديداً مختلفاً نوعياً عنهما معاً، إنّهُ عالم الرواية حيث يعيد المبدع تنظيم الأشياء وتصنيفها، عبر وصف خصائصها، أو سرد ما يحفّ بها من أحداث، فيستعمل مختلف سبل الإضاءة، والتعتيم، والتقطيع، والتركيب، والإبراز والإهمال، والتدقيق، والتعميم حتّى يزيج بالأشياء في عالمها الجديد، وبكسبها وظيفتها الجديدة، ويحمّلها مختلف الأبعاد، عبر ما يضيفه إليها من ظلال ومعان ذات إحياء. إنّ عمليتي السرد والوصف خاصة تمثلان أبرز الفنّيات، التي تتيح للأشياء اكتساب وظيفتها وأداء دورها ضمن دنيا الأثر". (1).

أيّ ضرورة متابعة حركة الزمان والمكان، المترابطة داخل النسيج السردى واستخلاص حركتهما، واستكمالاً لذات الدائرة من المهمّ متابعة حركة الحدث والشخصية، معهما لكي تتأسّس رؤية بلاغية لحركة المكونات الحكائية الأربعة: (حدث شخصية، زمان، مكان) ينضاف إليها الحوار والرؤية داخل النسيج السردى.

يعمد البحث إلى كشف عمليات الانبناء التي تمسّ النص الروائي، من خلال الحصول على دلالة البنيات المتوفرة، وهذا ما أشار إليه "مرشد أحمد" بقوله: "النظر إلى النص الروائي هو بنية منتظمة تحتوي معنى متنوع المستويات (...). يحتاج إلى قراء يحققونه، لتدرك مظاهر انبائه، ومستويات معانيه، ولتخرج دلالاته من حيّز الكمون إلى حيّز التحقق، وبذلك يتمكّن النص الروائي، من العبور من مستوى الوجود بالفعل إلى مستوى الوجود بالقوة" (2).

يتمّ الكشف عن عمليات انبناء المستويات المتنوعة للنص الروائي من خلال إدراك البنية أولاً، ثمّ إنتاج الدلالة بعد فهم معنى البنية، وهذا فعل القارئ الذي يرصد البنيات، ثمّ يبيّن فيها من الدلالة ما يعطي للبنية مفهومها ويوسعه.

(1) صلاح الدين بوجاه : الشيء بين الوظيفة والرمز ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط 1

بيروت، لبنان، 1993م . ص 16 .

(2) مرشد أحمد: المرجع السابق، ص 26.